

الفصل



أثلاف من النقاد

فى عام ١٩٣٠ أعلن ألبيرت ويجام- الداعية الیوجینی- أمام جمع من الناس بالمتحف الأمريكى للتاریخ الطبیعى "أن الحضارة تجعل العالم مكانا آمنا للأغیاء". ربما كان یوجینیو الخط الأم قد انشغلوا طویلا بمعدل الولادة التفاضلى، أو بتدهور الذكاء القومى، لكن ادراكهم قد تعمق كثيرا فى فترة الكساد الاقتصادى الكبیر.

قدم الیوجینیون فى الثلاثینات شواهد احصائية على أن مؤسسات الصحة العقلية فى أمريكا ستؤوى قریبا أكثر من نصف ملیون فرد: واحدا من بین كل ٢٥٠ شخصا فى البلاد. قیل إن عدد العائلات التى ترسل طفلا إلى المصحات العقلية یزید عن ضعف عدد العائلات التى ترسل واحدا إلى الجامعة. لكنا قد لانجد بین الاحصائيات الأمريكية ما یبارى فى الأثر تلك الشواهد التى قدمها التقرير الذى أصدرته عام ١٩٢٩ اللجنة المشتركة للقصور الذهنى، التى شكلتها الحكومة البريطانىة، وذلك بعد مسح دام خمس سنوات. یقول ما اعتبرته اللجنة تقديرا محافظا إن هناك ما لا یقل عن ٣٠٠ ألف معوق ذهنيا فى انجلترا وویلز، وهذا یعنى أن نسبة القصور الذهنى قد تضاعفت منذ عام ١٩٠٨ عندما أجرى المسح السابق. ثمة ما یشیر إلى أن ثلاثة أرباع القصور الذهنى یأتى عن عائلات تحت المتوسط فى الدخل والوضع الاجتماعى. شملت هذه العائلات، على حد تعبیر تقرير اللجنة المشتركة، نسبة أعلى بكثير من "مختلى العقل" ومرضى الصرع، والملقین، والمجرمین (لاسیما معتادى الاجرام)، والعاطلین، وسكان الأحياء الفقيرة المزدهمة، والعامرات، والسكّیرین، وغیرهم من العاجزین اجتماعیا، مقارنة بالعائلات التى تخلو من المعوقین ذهنیا. ولقد شكل هؤلاء- كما یقول التقرير - "جماعة معضلة من الناحية الأخلاقية"، وهم یؤلفون نحو ١٠٪ من المجتمع الانجلیزى والویلزى.

تضمن تقريرُ اللجنة تحذيراتٍ من أن تزايد عدد المعوقين ذهنياً لا يأتي بالضرورة عن نسبة أعلى تولد من هؤلاء التعساء، ولكنه بلا شك يعكس - من بين ما يعكس - حقيقة أن نسبة من الناس أعلى تحياً إلى سن البلوغ بسبب تحسن خدمات الصحة العمومية. لكن ماذا عسّطت عليه الأضواء كانت هي النتائج الرئيسية للتقرير، لا التحذيرات. في رزاة أخبر نيفيل تشامبرلين (رئيس الوزراء فيما بعد) مجلس العموم أن تضاعف نسبة المعوقين "لابد أن يسبب انزعاجاً خطيراً وتخوفاً لدى كل من يهمل مستقبل هذا الشعب، جسدياً وعقلياً".

رأى يوجينيو الخط الأم أن الوضع الاقتصادي إنما يرجع إلى التدهور البيولوجي، هو نتيجة معدل الولادة التفاضلي. أصروا على أن العاطلين - بسبب قَدْرهم البيولوجي - لابد أن يكونوا متخلفين ذهنياً، قصيري النظر، غير مسئولين، تافهين. في عام ١٩٢١ نشرت مجلة كوزموبوليتان أن الرئيس هيربرت هوفر يرى أن كل الأطفال المتخلفين يعانون من سوء التغذية. وكان على البيت الأبيض أن يصدر تصحيحاً: فهذا التصريح لا يمثل وجهة نظر الرئيس، وهو بالطبع يتنافى مع "كل المعرفة العلمية عن الوراثة". وجّه اليوجينيون البريطانيون الاهتمام إلى كتاب "الوراثة وجماعة المعضلة الأخلاقية"، وهذه دراسة عن فقراء الطرف الجنوبي للندن نشرت عام ١٩٢٢، بعد ربع قرن من البحث، وقد أنجزها أ. ج. ليدبيتر، الذي عمل طويلاً في مجال رعاية الفقراء بهذه المنطقة. كانت هذه الدراسة في أساسها خلاصة وافية لبيانات الإنسان، واقترحت في النهاية أن الفقراء يشكون طبقة بيولوجية خاصة بهم تتميز بدرجة عالية من التخلف، تبقى وتستديم بسبب زواجهم فيما بينهم. أكد ليدبيتر "أن الأفضل في الحضارة هو الأفضل بيولوجياً، وعلى هذا فإن المطلوب اليوم هو أن نهتم بمشاكل التكاثر وتنظيمه".

أثار الكساد الاقتصادي نوبة أخرى قوية من الاهتمام بحجج يوجينيا الخط الأم التي تعضد التعقيم. قامت الجمعية اليوجينية - وهكذا أصبح اسم جمعية الثقافة اليوجينية منذ عام ١٩٢٦ - قامت بطباعة عشرة آلاف نسخة من كتيب يشرح مزايا التعقيم، وقد كان الطلب على الكتيب كبيراً فطُبع منه عشرة آلاف نسخة أخرى. خصص محررُ مجلة "نيتشر" العلمية المحترمة مساحة في مجلته لقضايا التعقيم، تضمنت رأياً لأحد اليوجينيين البريطان اقترح فيه "التعقيم الجبري كعقوبة للأبء الذين يلجأون إلى معونة الدولة لإعالة أبنائهم". وفي الولايات المتحدة تحدث الناس عن إجراءات مشابهة تجاه من يعيشون على الإعانات لفترة تزيد عن حد

معين، ثمة استفتاء أجرته مجلة "فورتشون" عام ١٩٣٧ بين أن ٣٦٪ من الأمريكيان يعضون التعقيم الجبرى للمجرمين بالفطرة، وأن ٦٦٪ منهم يساندون تعقيم المعوقين عقليا. قال بروفيسور أ. أ. هوتون، زستاذ الانتوبولوجيا بجامعة هارفارد، إن على الدولة أن تجرى بعض "التنظيف البيولوجى".

أصر "عمال النظافة" على جانبى الأطلنطى على أن التعقيم أمر انسانى، بل وعملى أيضا. وإثبات هذا أورد تقرير "التعقيم لتحسين البشر"، وهذا تقرير نشره عام ١٩٢٩ اليوجينيان الأمريكان عزرا جوسنى وبول بوبنو، عن تاريخ هذه العملية فى كاليفورنيا. تصدرت كاليفورنيا الأمة منذ أوائل القرن فى مجال التعقيم، وكان رصيدها حتى عام ١٩٢٩ هو ٦٢٥٥ عملية، نحو ضعف ماتم فى كل الولايات الأخرى مجتمعة. يقول جوسنى وبوبنو إن قرار التعقيم يتم فى روية بناء على رأى مجموعة من الأطباء ورجال الاجتماع والمتخصصين فى الصحة العقلية، بعد استشارة العائلة، وكانت العمليات (قطع الوعاء الناقل أو ربط قناة فالوب) تتم بصورة دقيقة وبأقل قدر من التلوث وأقل عدد من الضحايا. ولقد رحب الكثيرون من المرضى بإجراء العملية - أو على الأقل رحبت عائلاتهم بها. أعرب عدد كبير من النساء بالذات عن امتنانهن الجزيل، بل و"كان تعبير الكثير منهن مشجيا، ووددن لو تمتعت بنفس الوقاية غيرهن ممن يعانين من الحمل مع الأمراض النفسية".

حظى التعقيم، وقد ساعده وشجعه الكساد، بتعضيد متنوع الأشكال بالولايات المتحدة وبريطانيا، تعضيد مضى أبعد بكثير من نواتر اليوجينيين. تراوح مؤيدوه ما بين أساتذة الجامعة ونظار المدارس الأولية، من عضوات النادى إلى المشتغلين بالصحة العقلية، من اتحاد الإصلاح النسائى لحزب المحافظين البريطانى إلى تحالف الناخبات بنيوجرسى، من اللقاءات الخاصة إلى مؤتمر البيت الأبيض عام ١٩٣٠ عن الأطفال والصحة، من الأساقفة الأنجليكان إلى اتحاد كنائس الحركة الدينية الإصلاحية بنيوارك، من اللورد هوردر طبيب الملك جورج السادس وأمير ويلز إلى ه. ل. مينكين الذى اقترح أن تدفع الحكومة الفيدرالية ألف دولار لكل أمريكى بالغ يقبل أن يعقم طوعا. سنّت الحكومات قوانين للتعقيم اليوجينى فى السويد والدانيمرك وفنلنده، بل وحتى فى إحدى مقاطعات سويسرة. وعلى عام ١٩٣٣ قدر بول بوبنو فى فخر أن عدد من يسرى عليهم قوانين التعقيم قد بلغ مايقرب من ١٥٠ مليوناً من البشر.

أما فى بريطانيا فقد كان التعقيم أيا كان سببه يُعتبر مخالفا للقانون. لم يكن هناك قانون

يمنعه صراحة، لكن ثمة قوانين عديدة تشير ضمنا إلى أن التعقيم البيوجيني للقاصرين ذهنيا هو أمر غير شرعى، مثل قانون ١٨٦١ الخاص بالتعدى على الآخرين، الذى يحرم ايذاء الغير بضرر جسدى جسيم ويعتبر ذلك جريمة. صحيح أن التعقيم قد لايشكل مثل هذا الضرر، لكن الأطباء البريطان كانوا يعزفون عن اجراء العملية حتى للمتطوعين، دعك من اجرائها لمن لايستطيع بحكم قصوره الذهنى أن يتخذ قرارا قانونيا أو غير قانونى.

أما فى الولايات المتحدة وبرغم قضية باك ضد بل، فقد كان معظم المبطلين ذهنيا فى مأمن من موضع الجراح. تحدث مينكين عن التعقيم الطوعى، لأنه أدرك صوابا أن "ميثاق الحقوق يحمى الفلاح الأجير - الذى قد لايجده العالم إنسانا - كما يحمى رئيس جامعة هارفارد... فهو لن يُسجن إلا إذا ارتكب فعلا صريحا يحرمه القانون، وهو لن يُخصى إلا إذا كان فى بقائه كذكر ما يهدد المجتمع تهديدا "جليا مؤكدا". كان مضمون حكم المحكمة هو جواز التعقيم الجبرى فقط على نزلاء المصححات العقلية للولايات، الذين يثبت أن عجزهم وراثى. كان الطريق ضيقا، لكن إشارة المرور ظلت خضراء. فبحلول عام ١٩٣٥ كان ثمة أربع ولايات قد أجازت قوانين التعقيم، كما قُدمت للهيئة التشريعية فى سبع ولايات أخرى مشاريع قوانين لنفس الغرض. تراوح معدل التعقيم القومى السنوى خلال العشرينات من هذا القرن ما بين اثنين وأربعة لكل مائة ألف، ليرتفع فى أواسط الثلاثينات إلى خمسة عشر، ثم يصل إلى عشرين على نهاية العقد. بلغ العدد الكلى لمن عُمقوا على مستوى الدولة حتى عام ١٩٤١ نحو ٣٦ ألف شخص. فضلا عن ذلك فقد كان التعقيم يتم بالفعل فى الفترة من ١٩٣٢ حتى ١٩٤١ - بغض النظر عن إجازته قانونا - فى عدد من الولايات يزيد كثيرا عن ذى قبل: بلغ نصيب كاليفورنيا - وإن ظل الأكبر - الثلث من بين المعقمين، وتلتها فى الترتيب ولاية فرجينيا - حيث عُرِضت قضية باك ضد بل - التى فازت بالسبع.

يتذكر هوارد هيل العضو السابق بمجلس المراقبين لمقاطعة مونتجومرى، فرجينيا، أن سلطات التعقيم بالولاية قد أغارت فى الثلاثينات على عائلات كاملة من سكان الجبال غير الملائمين". كان لهيل فى ذلك الوقت محلا صغيرا لبيع الحلوى يخدم هذه العائلات. يقول هيل "أصيب كل من يتكسب عيشه هناك عندئذ بالهلع خشية التعقيم، ففروا يختبئون بالجبال، ليتعقبهم العمدة ورجاله... ظلوا يطاردونهم حتى جبل براش، عندما قبضوا عليهم وشحنوهم فى عربتين، ليعود بهم العمدة إلى ستونتون (مستشفى ويسترن ستيت) حيث يمكن تعقيمهم".

أضاف هيل "كان الناس على العموم يؤيدون ما يحدث. هم لا يتحملون أن يولد آخرون بهذا العالم يقاسمونهم الخير".

كان تعقيم الذكور في مستعمرة الولاية بليينشبرج يتم كل ثلاثاء، وكان تعقيم النساء يجرى أيام الخميس. لكن كان هناك من يرى أن الولاية لاتعقم إلا عددا قليلا، مثل الدكتور جوزيف س. ده جارنيت، الذي كان لزمان طويل صوتا قويا في اليوجينيا، وشخصا ذا تأثير قوى في برامج التعقيم اليوجيني. حث الهيئة التشريعية في عام ١٩٢٤ أن توسع من قانون التعقيم. قال "إن الألمان يهزموننا في نفس ملعبنا".

في عام ١٩٢٣ أعلنت وزارة أولاف هتلر قانوناً للتعقيم اليوجيني. مضى القانون الألماني لأبعد بكثير من القوانين الأمريكية، إذ كان إلزاميا لأيطبق فقط على نزلاء المصحات العقلية وإنما على كل من يعانى من قصور وراثى مزعوم: ضعف العقل، انفصام الشخصية، الصرع، العمى، الإدمان الشديد للمخدرات أو الكحوليات، التشوهات الجسدية التى تعوق الحركة بشكل خطير، أو التى تبدو كرهية للغاية. قال مستشار وزير داخلية الرايخ، الذى صاغ القانون، إنه مبادرة فى غاية الأهمية بالنسبة للصحة العمومية. صرح لعدد من المراسلين الأجانب فى برلين بقوله "إننا نريد أن نمنع... تسمم دم السلالة بأكمله. إننا نتجاوز حب الجار، إننا نبسطه إلى أجيال المستقبل، وهناك تكمن الأخلاقية العليا للقانون وتبريراته". عندما أصبح القانون نافذا فى أول يناير ١٩٢٤ كان على الأطباء أن يبلغوا عن كل من هو "غير ملائم"، إلى المئات من محاكم الصحة الوراثية التى أنشئت لتقرر مستقبل النسل الألماني. كان من الممكن أن يطعن فى الأحكام أمام محكمة يوجينية عليا، وأحكام هذه نهائية يلزم تنفيذها، بالقوة إذا لزم الأمر. وفى خلال سنوات ثلاث كانت السلطات الألمانية قد عقلت عددا يتراوح ما بين ٢٠٠ ألف و ٢٥٠ ألف شخص، نحو عشرة أضعاف العدد الذى عُمم فى أمريكا خلال الثلاثين سنة السابقة. ولقد وُصف نحو نصف هؤلاء بأنهم "ضعاف العقول".

كان التعقيم بالطبع هو مجرد بداية للبرنامج اليوجيني النازى من أجل تحسين "السلالة" الألمانية. منحت الحكومة قروضا للأزواج المتميزين بيولوجيا والذين يفترض أن يكون فى نسلهم فائدة "للشعب"، على أن يخصم ٢٥٪ من قيمة القرض عند ولادة كل طفل. خصصت بعض المدن الألمانية إعانات خاصة تُمنح عند ولادة الطفل الثالث أو الرابع للعائلات الأفضل. حث

هاينريخ هملر أعضاء فرقة حماية الأمن (إس إس) أن ينجبوا أكبر عدد من الأطفال من أفضل نساء السلالة حتى يمكن بناء الصفوة الآرية. وفي عام ١٩٣٦ أنشأ "دور الحياة" حيث تمكث الأمهات من فرقة حماية الأمن - المتزوجات وغير المتزوجات - ليتلقين أفضل عناية طبية خلال إقامتهن.

مضى برنامج النازي لفترة مستقلا عن سياسات النظام المعادية للسامية. لم تتميز القيادة اليوجينية الألمانية قبل عام ١٩٣٣ بمعاداتها الواضحة للسامية، بل الحق أن المجلة اليوجينية الألمانية الرئيسية قبل عام ١٩٣٣ كانت تفترض أن يهود ألمانيا هم بالفعل من الجنس الآري. كتب جاكوب ه. لاندمان، اليهودي المعارض للتعميم، في عدد عام ١٩٣٦ من مجلة "سيرفاي جرافيك" يقول إن البرنامج الألماني "لم يقصد به القضاء على غير الآريين، وإنما غرضه تحسين الأرومة الألمانية القومية"، واستمر يقول "لم يكن من بين مجالات هذا البرنامج تعقيم الساميين أو غيرهم من المجاميع غير السامية". وليس ثمة شواهد على أن حرمة القانون قد انتهكت لتعميم المرضى لأنهم ليسوا من الجنس الآري.

وبتحول هتلر إلى معاداة اليهود علنا، اندمجت سياسة النازي العنصرية بالسياسة اليوجينية. أعلن النظام قوانين الزواج اليوجينية التي تحرم الزواج على المصابين بالأمراض العقلية أو بعض الأمراض المعدية، أو بين من ينتمون إلى "سلالات" مختلفة. وقد سُمح باستثناء المختلين عقليا من هذا التحريم إذا ثبت تعقيمهم. ثم صدرت قوانين نورمبرج عام ١٩٣٥، ولم تعد ثمة استثناءات لتحريم الزواج بين "اليهود" و"الألمان". وفي عام ١٩٣٩ تحرك الرايخ الثالث إلى أبعد من التعقيم ليدشن القتل الرحيم في طبقات معينة من مرضى العقل أو المعوقين ذهنيا الموجودين في المصحات العقلية الألمانية. وكان من بين هذه الطبقات اليهود جميعا، بغض النظر عن صحتهم العقلية. تقرر في النهاية تنفيذ القتل الرحيم على نحو سبعين ألف مريض، قُتلت الدفعات الأولى منهم رميا بالرصاص، أما الباقي فقد كانوا يساقون إلى حجرات تبدو كحمامات للاغتسال، حيث يُقتلون بالغازات السامة.

في السنين الأولى لحكم النازي، لم يكن لمعظم يوجينيين الخط الأم بالولايات المتحدة وبريطانيا أن يعلموا - والأغلب أنهم لم يكونوا يحبون أن يتصوروا - أن نهراً من الدماء سيتدفق في نهاية الأمر من قوانين ١٩٣٣ للتعميم، إلى أوشفيتز وبوخنفالد. بعد صدور القانون بوقت

قصير أشار أحد موظفي جمعية اليوجينيا الأمريكية لبعض الصحف بأن سياسة هتلر للتعقيم تبين شجاعة عظيمة وقيادة رائعة، بينما ردد مراقبون آخرون - من بينهم هافلوك إليس - تصريح لاندمان بأن برنامج النازي للتعقيم يخلو من أي محتوى عنصري شائن. قال اليوجينيون الألمان، يغازلون زملائهم الأمريكيين، إنهم يدينون كثيرا للسبق الأمريكي - مثل تقرير جوسنى وبونو عن برنامج كاليفورنيا. وفي عام ١٩٣٦ وافقت جامعة هايدلبرج على منح الدكتوراه الفخرية في الطب لهاري لولين، وكان لا يزال المتحمس للتعقيم والمسئول عن مكتب السجل اليوجيني بكوند سبرنج هاربور، لونغ أيلاند. قبل لولين الدرجة وتسلمها من القنصلية الألمانية بقلب مدينة مانهاتن، وكتب إلى سلطات هايدلبرج قائلاً إنه لا يعتبر هذه الدرجة تكريماً شخصياً فقط، وإنما هي أيضاً "دليل على التفهم المشترك بين العلماء الألمان والأمريكان لطبيعة اليوجينيا".

* * *

لكن السياسات النازية البربرية قد أثارت في النهاية رد فعل قوياً ضد اليوجينيا. وكان رد الفعل هذا - ربما بسبب قوته الخارقة - يحجب حقيقة تاريخية أعمق. كان العديد من المفكرين بين الجماهير البريطانية والأمريكية قد أدركوا بالفعل أن ثمة الكثير من الخطأ يكمن داخل يوجينيا الخط الأم. والحق أن انتقاداً قوياً قد انقلب ضد حركة الخط الأم قبل وصول النازي إلى الحكم بزمان طويل. جاءت المعارضة من مصادر متباينة، منها العلماني ومنها الديني. من بين كبار المعارضين سنجد أعضاء من حزبي الأحرار والعمال بانجلترا، ومن مؤيدي مبادئ الحرية بالولايات المتحدة، ومن رجال الاجتماع وعلماء الاجتماع. ومن بينهم أيضاً أعضاء من جماعات صغيرة كانت لاتزال في طريقها إلى العالم الأكاديمي. وكان من بين النقاد يوجينيون لم ينضموا أبداً إلى الخط الأم - من الراديكاليين عادة ومؤيدي حقوق المرأة - وبعض المرتدين عن الخط الأم. وبينهم كذلك كان بروتستانت من طوائف مختلفة، ويهود، وبصفة خاصة: كاثوليك.

كانت المعارضة الكاثوليكية تركز فكرياً على عقيدة الكنيسة بأن نظام الله في خلقه قد جعل صفات الإنسان الجسدية صفات ثانوية، فروحه هي الأسمى. فمن يعتبرهم اليوجينيون غير صالحين هم عند الكنيسة أبناء الله، حباهم أرواحاً خالدة، ومنحهم حق الاحترام الواجب

لكل البشر. في دراسة قام بها الأب توماس ج. جيرار لنقابة الاجتماعيين الكاثوليك، نجده يسمى العقائد الیوجينية الراديكالية "عودة كاملة إلى حياة الحيوان"، ونجده ينتقد صيغتها الشائعة التي تقول إن الإنسان - في أصله وأساسه - حيوان بطبيعته وأن تحسينه - في أساسه إن لم يكن بأكمله - أمر يتعلق بالبلازما الجرثومية، واللبن، والهواء النقي، والفنون الوجدانية، والشهادات المزخرفة (ذات القيمة الیوجينية). "أكدت الكنيسة على دور الحب والأخلاق الدينية في إنجاب نسل ذي خصائص يوجينية، لاعلي كمال الأبوين جسدياً وذهنياً. قال جيرار: "إن الكنيسة تؤكد أن السبب الجذري للتدهور هو الخطيئة، وأن السبب الجذري للتحسين هو الفضيلة". فإذا ماخشى الأبوان أن ينجبا نسلاً معوقاً وراثياً، فإن الكنيسة تصر على التعفف لاعلي منع الحمل، ذلك أن منع الحمل، "لايتسبب فقط في قتل الشهوة في عش الزوجية"، كما يقول جيرار، وإنما هو يؤدي إلى انتحار السلالة. ربطت السلطات الكاثوليكية بين الیوجينيا وبين الإباحية الحديثة التي تهدد كيان العائلات، وتهدد طاعة الزوجة لزوجها، وتهدد كبح الشهوة الجنسية بالإرادة الخلقية. كشف الباب بيوس الحادي عشر مجموعة المعاصي الكاثوليكية في منشور بابوي ظهر في ٣١ ديسمبر ١٩٣٠، شجب فيه الیوجينيا، بجانب الطلاق، وتحديد النسل، والزواج العرفي، وتمجيد الشهوات الحيوانية في الأفلام والصحافة والمسرح.

لم يوافق النقاد العلمانيون - إلا بالكاد - على كل اتهامات الكنيسة الشاملة، وإن كان ثمة الكثير منها قد استحق استحسانهم - لاسيما الهجوم على الاختزالية البيولوجية لعقيدة الخط الأم. رأى المُنظّر البريطاني الليبرالي ل. ت. هوبهاردس - بعد أن أزعجته تضمينات هذه الاختزالية بالنسبة للنساء - رأى أن من حق يوجيني "الخط الأم" أن يلفت النظر إلى ذبول العائلة داخل الطبقات الأكثر تعليماً. "لكنه أكد خطأه" إذا أصر على التكاثر الكمي على حساب الحياة الكيفية، إذا عاد إلى فكرة أن عمل المرأة يقتصر على الحمل وتربية الأطفال. أما شخصية ستيفن ديدالوس عند جيمس جويس فقد كره - بعد أن تأمل مفاهيم الجمال - كره أن يعتبر أن "كل خصيصة جسدية يعشقها الرجال في النساء إنما ترتبط ارتباطاً مباشراً بوظيفة النساء في نشر النوع". إن هذا يؤدي إلى الیوجينيا لا إلى الجمال، وإلى القول بأنك قد عشقت خاصة فينوس الرائعة لأنك اعتقدت أنها قد تنجب لك نسلاً قوياً البنية، وعشقت نهديها الكبيرين لأنك شعرت بأنها سترضع أبناعها أبناعك لبناً طيباً وفيراً".

أما النقاد نوو النزعات الانسانية فقد وحنوا بين عدوانية اليوجينية وبين استيائهم العام من تزايد سلطة العلم. أطلق ج. ك. تشيسترتون، في سنى ما قبل الحرب، وابلا من المقالات اللاذعة ضد ادعاءات يوجينيا الخط الأم، متهما أنصارها بأنهم تمكنوا من أن يجمعوا بين قسوة القلب ورقة العقل، ويأنهم حولوا مايعتبر عادة أعمالا تستحق الثناء (كالزواج بالمرضى) إلى "جرائم اجتماعية". جُمعت هذه المقالات في أوائل العشرينات - تقريبا في الوقت الذي تحول فيه تشيسترتون إلى الكاثوليكية - في كتاب عنوانه "اليوجينيا، وشروء أخرى"، ولقد أصبح هذا الكتاب سلاحا رئيسيا في ترسانة الأسلحة ضد اليوجينية على جانبي الأطنطى. ربط تشيسترتون بين اليوجينية والعسكرية البروسية الاستبدادية فلها "نفس العلم الفاسد، نفس البيروقراطية المستأسدة، نفس الارهاب يقوم به علماء من الدرجة العاشرة قانوا الإمبراطورية الألمانية إلى انتصاراتها الأخيرة الهائلة". كان يرى أن العلم يهدف - من زمان - إلى الاستبداد. ومن خلال اليوجينيا فإنه يرمى إلى أن يصل الى المناطق السرية والمقدسة للحرية الشخصية، حيث لم يسبق أن فُكر إنسان، ولاسيما إلى محراب الجنس". ولقد تنبأ بأن اليوجينيا قد تعنى الزواج القسرى عن طريق الشرطة.

عندما سنت الولايات المختلفة قوانين الزواج اليوجينية، سخر المحللون المعلميون من أن الاجراءات - في مثل تشريع التحريم - ستكون في معظمها غير قابلة للتطبيق بالقوة - إذ يستطيع الشخص أن يتجنب قوانين الزواج في ولاية بالزواج في أخرى. تنبأت جريدة "الأم" بأن ماسيحدث هو "التهرب... القسم الكاذب أمام المحاكم... سوء الادارة" ثم في النهاية "الأعمال اللاأخلاقية". قد تكون مقالات تشيسترتون عالية النبرة، وقد يكون المحللون القانونيون عمليين، لكن المهم هو أن الشعور العام كان يرى أن التدخل اليوجيني في الزواج أو في الانجاب هو انتهاك خطير لامبرر له للحرية المدنية. أشار العديد من النقاد إلى أن حركة يوجينيا الخط الأم لانتق في الديمقراطية، وأشاروا الى ادعاءاتها بأن البشر لم يخلقوا متساوين ولاحتى في الحقوق السياسية، وإلى تهديدها بإنشاء نظام حكومى مغلقت على نفسه. توقع برتراند راصل أن ينتهى الأمر بأن تعتبر المعارضة للحكومة "دليلا على البلاهة، فيعقم كلُّ شائر". حذرت كلارنس دارو في مقال لها عام ١٩٢٦ من أنه إذا ماتقلد اليوجينيون السلطة "فسيقوم ذوو السلطان - لامناس - بتوجيه التوالد على هواهم... وهذا يعنى في الوقت الحاضر أن يخلق رجال الصناعة سلالةً توافق خيالاتهم، وهو يعنى في أى وقت أن يجرى توجيه التوالد - في الانسان كما في الحيوان - لخدمة أهداف القوى غير الذكى".

كان سلاح الهجوم ضد اليوجينيا هو المبدأ. ولقد عززته خبرة الاجتماعيين الذين واجهوا أهداف اليوجينيا الانسانية بإقامة المؤسسات الخيرية، ومساكن الإيواء، وبور الصحة العقلية. لاشك أن أفضل مثال هو الكاهن وليام أ. دافينبورت، شقيق تشارلس دافينبورت، الذي اعتمد على ما اكتسبه من خبرة كمؤسس ورئيس لجمعية الاستيطان الإيطالي لنقابة المجاورة في بروكلين نيويورك. صحيح أنه كان يميل - مثل الكثيرين غيره من السكان المحليين في ذلك الوقت - إلى أن يربط الخصائص السلوكية بالمجاميع العرقية (مثل الميل إلى العنف أو السكر)، لكن خبرته قد أشارت بأن من يعرفه من الإيطاليين لا يستحقون هذه الانتقادات البيولوجية التي أسبغتها عليهم اليوجينيا. قال الكاهن دافينبورت لأخيه "لقد قابلت مرارا وتكرارا شبابا حكم عليهم المختصون (المصلحون) بأنهم ضعاف ذهنيا... ثم اتضح فيما بعد أن لديهم قدرات ممتازة في علاقاتهم المنزلية وفي التزاماتهم الاجتماعية، بل - وكثيرا - في قدرتهم على تكسب المال والحفاظ عليه... إننى شخصيا أعرف نصف دسنة من مهربي المسكرات لا يستطيعون مقاومة إغراء المال. ولكنهم - وبصورة لا يمكن انكارها - يقاومون اغراء تبديده بسرعة".

استمد المبدأ القوة أيضا من التهديد اليوجيني للجماعات ذات الدخل المنخفض. شجب علماء اللاهوت الكاثوليك اليوجينيا، ليس فقط لأنهم قد وجدوها تعارض القوانين الكنسية، وإنما لأن فقراء المهاجرين يشكلون نسبة كبيرة من المجتمع في ليفربول والطرف الشرقي من لندن، وفي مدينة نيويورك، وبوسطن وفلادلفيا وشيكاغو. وإذا ما وجدنا علماء اللاهوت الكاثوليك يهاجمون اعتناق اليوجينيا لفكرة تنظيم النسل، فإن هذا يرجع جزئيا إلى أن السكرتير العام للمؤتمر القومي لرعاية الكاثوليك، ومعه الأب جون ج. بيرك، قد ظلنا أن مؤيديها "يشجعون أن تكون الطبقات الدنيا أقل إنجابا بسبب الأحوال الاجتماعية، ويؤمنون بأنه من الممكن تخفيض وفيات الأطفال (النتيجة عن الحاجة للرعاية وعن انتشار الجهل والمرض) ليس عن طريق تحسين الأحوال الاجتماعية وكبح من يستغل الفقراء، وإنما عن تكييف عادات هذه الطبقات بحيث تتلاءم مع ظروفهم". أما المنشقون فقد كانت لهم وجهة نظر مشبوهة بالعواطف تقول إن الاهتمام بتفوق البلازما الجرثومية القومية في المستقبل، قبل النظر في الحاجات الانسانية للمحرومين الحاليين، هو أمر شائن من الناحية الأخلاقية. رأى المصلحون الاجتماعيون بناء على خبرتهم القاسية أن ما يلزم وقفه هو التدهور الاجتماعى لا العرقى، وأن ما يلزم تعزيزه هو التحسين الاجتماعى لا العرقى.

وجد المبدأ أيضاً التّدعيمَ فى تلك الاكتشافات الحديثة للعلوم الاجتماعية المختلفة - لاسيما الأنثروبولوجيا والسوسولوجيا وعلم النفس - إذ كانت تتجه بطبيعتها فى مسار مضاد لليوجينيا، بون الانتباه خاصة إليها. ومع ذلك كان على المبدأ أن يمضى سنيا بون دعم من علم الوراثة، ذلك أن الوراثةيين - البريطانيان كما الأمريكان - كانوا إما واقعين فى شرك عقيدة الخط الأم، أو كانوا راغبين عن إغصاب زملائهم المعضدين لليوجينيا - فى مجتمع علمى يزعم عدم اهتمامه بالسياسة. علي أن عددا متزايدا قد أقلقه أن يجد يوجينيا الخط الأم تلوّث مشروع علم الوراثة. ثمة نكهة كانت تكتنف الكتابات اليوجينية - باهتمامها بالجنسانية وصحة الطفل وحياة الأسرة - نكهة علم سوقى مستهجن. كما رأى آخرون أن يوجينيا الخط الأم كريمة أخلاقيا أو اجتماعيا. لكن الأهم من هذا بالنسبة لمعظم العلماء هو أن الكثير مما أُطلق عليه اسم أبحاث يوجينية كان يتسم بالاهمال فى المنهج والشواهد والاستنتاج. كانت هناك فى الواقع هوة تتسع مابين الادعاءات العلمية الرئيسية لليوجينيا وبين نتائج علم الوراثة الحديث. ويتقدم علم الوراثة فى الثلث الأول من القرن، أدرك العاملون بالتدرّج، وعلى أساس علمى، أنهم - كما قال وليام أ. كاسل عالم الوراثة بهارفارد - لا يستطيعون بموالة اليوجينيا أكثر من أن يجعلوا من أنفسهم أضحوكة.

فى غضون الحرب العالمية الأولى بدأ عدد من الوراثةيين يتصلون من يوجينيا الخط الأم فيرفضون العمل فى المنظمات اليوجينية، ويعترضون على الاجتماعات التى تربط اليوجينيا بالوراثة، ويصرّون على أن تُحجم مجلات الوراثة عن نشر المواضيع اليوجينية. استقال توماس هنط مورجان من جمعية المربين الأمريكان ذات الصلة باليوجينيا مستنكرا مجلتها، بصورة شخصية، لأنها غير جديدة بالثقة وتنتشر "تعبيرات طائشة". تشكك إدوين جرانت كونكلين - عالم الأجنة بجامعة برينستون - فى الطبعات المتعددة من كتابه "الوراثة والبيئة فى تطور الانسان"، تشكك فى ادعاءات الخط الأم المتهورة. أما الوراثةى هيرمان ج. مولر، الاشتراكى الصريح، فقد شجب عقيدة الخط الأم فى نفس المؤتمر الدولى الثالث لليوجينيا. فى مقال بمجلة "أميريكان ميركورى" بعدد نوفمبر ١٩٢٧ هاجم رايموند بيرل - أستاذ البيومترى والاحصاءات الحيوية فى جون هوبكنز، والقريب الحميم إلى دائرة مينيكين المعارضة للمؤسسات التقليدية - هاجم "التميز البيولوجى" مؤكدا أن اليوجينيا قد غدت "إلى حد كبير مزيجا مشوشا فجا بلا أساس، من السوسولوجيا والاقتصاد والأنثروبولوجيا والوراثة،

مزيجا يمتلىء بالدعاوى العاطفية لتحيزات طبقية وعرقية، تُعرض كما لو كانت علما، ليقبلها الجمهور، بكل أسف، كما هي دون تفكير.

* * *

أما أهم العلماء الذين قاموا بالهجوم على يوجينيا الخط الأم والذين كانت مقالاتهم النقدية هي الأقوى والأبعد أثرا، فهم البيولوجيون البريطانيان ج. ب. س. هالدين وجوليان هكسلى ولانسلوت هوجبين، مع زميلهم الأمريكى هيربرت س. جيننجز. كان هالدين أستاذا للوراثة، ثم للبيومتري، فى كلية الجامعة بلندن، وكان هكسلى رئيسا لجمعية علم الحيوان بلندن، وكان هوجبين أستاذ البيولوجيا الاجتماعية فى كلية الاقتصاد بلندن، أما جيننجز فكان أستاذ علم الحيوان فى جونز هوبكنز. كانوا جميعا من مؤيدى النمط الجديد فى البيولوجيا - التجريبية، وتفسير ظواهر الحياة بلغة الفيزياء والكيمياء، وإخضاع المشاكل البيولوجية، حيثما أمكن، للتحليل الرياضى. قال هالدين "إن أوقية جبر خير من طن جدل شفهي". قدم الأربعة جميعا مساهمات بارزة - كلُّ بتأكيد مختلف - داخل نمط التطبيق الجديد، فى مجالات الوراثة وبيولوجيا التطور. من بين المنجزات البحثية لهكسلى نظرياته عن تطور السلوك فى الطيور، لاسيما الطقوس المرتبطة بالغزل والتزاوج. أوضح جيننجز أن التكاثر اللاجنسى فى البرامسيوم ينتج نسلا متماثلا من الناحية الوراثية، ثم أنه استخدم نتائجه فى تحديد دور كل من الوراثة والبيئة فى تطور هذا الكائن وسلوكه. تراوحت أعمال هوجبين ما بين الوراثة السيتولوجية ووراثة الذكاء. أما هالدين، الباحث الفنان، فقد راد مجالات الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية بجانب البيومتري والوراثة، والأهم أنه كان أحد ثلاثة العلماء (الأخراى هما رونالد فيشر الإنجليزى وسيوال رايت الأمريكى) الذين استخدموا الرياضة فى توطيد نظرية التطور، وهذا هو الانجاز الكبير الذى لخصه هكسلى فى كتابه الكلاسيكى "التطور: التوليف الحديث" الذى ظهر عام ١٩٤٢.

كان الجناح البريطانى يرتبط بعلاقات شخصية: كان هالدين وهكسلى صديقين من أيام الدراسة فى إيتون. وانضم إليهما هوجبين عام ١٩٢٢ فى جامعة إدنبره للمساعدة فى تأسيس "مجلة البيولوجيا التجريبية". أما جيننجز، الذى أصبح أستاذا فى عمر متأخر، فقد كان العجوز فى قيادة الحملة ضد الخط الأم. كان فى السادسة والأربعين عندما اندلعت الحرب

العالمية الأولى، عندما كان الآخرون لا يزالون يدرسون بالجامعة أو يستقرون في أولى وظائفهم. كما أنه كان يعرف جيدا الشخصيات الأقل شأنًا التي تهاجم اليوجينيا في أمريكا، لاسيما رايموند بيرل، زميله في جونز هوكنز. كان المحيط الأطلنطي يفصل معظم الوقت بين مجموعتي البيولوجيين البريطان والأمريكان، إلا أن هكسلي ربطهما مبكرا، إذ كان قد قام بالتدريس في الفترة ما بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٦ في معهد رايس في هوستون مع هيرمان مولر. حصل مولر على وظيفة بهذا المعهد بعد الانتهاء من متطلبات الدكتوراه مع توماس هُنْط مورجان.

أدرك هالدين وهوجين وهكسلي وجيننجز الكثير في علم الوراثة، غير أن هذا لم يكن على الإطلاق السبب في تحولهم كرجل واحد ضد عقائد يوجينيا الخط الأم. لكن المؤكد أن هوجين قد عارض حركة الخط الأم منذ بدء عمله وبدون موارد، إذ اعتبرها مرادفا "لعبادة الأسلاف، ومعاداة السامية، والتحيز للون، ومعارضة الحركة النسائية، والتباهي، وتعويق التقدم التعليمي"، أما هالدين الذي انضم في صباه إلى الجمعية اليوجينية، فقد تعاطف لفترة مع بعض مناحي العقيدة، لاسيما إنكارها للطبقات الدنيا وتلفها على خفض معدل التكاثر فيها، بينما اقترح هكسلي في بداية عصر الكساد أن تُربط إعانة العاطلين من الذكور بتعهدهم بالإنجاب أكثر مما لديهم، أما جيننجز، وكان تلميذا لتشارلس ب. دافينيورت (ومؤجرا في مسكنه) فقد كان ينتمي إلى جماعات تميل إلى الخط الأم. غير أن مجال علم الوراثة الذي كان يتنامى بسرعة قد ساعد في تحول الرجال الأربعة ضد يوجينيا الخط الأم، كما ساعدت أيضا عوامل الجذور الاجتماعية، والمزاج، والمعتقدات السياسية الاجتماعية.

كان هالدين وهكسلي سليلي الأرستقراطية الإنجليزية المثقفة. دخل هكسلي (الذي يتذكر جلوسه على ركبتى جده توماس هنري) دخل مجال العلم بطبيعة الأمور. ومثله أيضا هالدين، الذي تعلم الوراثة المنديلية وهو طفل بتربية خنازير غينيا. علمه والده، الفسيولوجي باكسفورد الذي عمل كثيرا كمستشار للحكومة ورجال الصناعة، علمه ليكون مساعدا له. (كان هالدين يوما في منجم مع أبيه عندما عرف عن أثر غاز المناجم، إذ وقف بناءً علي أوامر والده وأخذ يتلو خطابا شكسبيريا، حتى انهار يلهث على الأرض حيث الهواء الطبيعي). ترعرع هوجين على الشاطئ الجنوبي لانجلترا حيث يلقى والده - رئيس أخوية بلايموث الدينية - مواعظه النارية على شاطئ بورتسموث. كان والده يؤم الصلاة اليومية للعائلة، ويحرم لعب

"الكوتشينة" وشرب الخمر والأفكار الخطرة - ومنها الأفكار العلمية. لكن والدته كانت تحلم بأن يصبح ابنها طبيبا مبشرا، فسمح له بقراءة الكتب فى علمى النبات والحيوان. فلما انتقلت العائلة إلى لندن ودخل مدرسة مدنية، لم يعد ثمة ما يجمع شهيته الذهنية للتعلم الذاتى. شب جيننجز فى تونيكإ إلبنى، وهذه مدينة صغيرة بها ثلاث كنائس ولاحانة. ولكنه دخل العلم - مثل هالدين وهكسلى - بحق المولد. أسس والده الطبيب المعدم جمعية أدبية محلية وارتد عن عقيدة أسلافه البروتستنتية، وأطلق على ابنه بيولوجى المستقبل اسم هيريت سبنسر، تيمنا بسبنسر، كما ضمن اسم ابنه الآخر إسم داروين، ولقن ولديه تعاليم الدين الجديد - التطور.

عندما كان هوجبين فى تونيكإ لم يكن يقرأ فى التاريخ الطبيعى، ولكنه عشق شكسبير، ولما وصل هارفارد ابتهج برؤية الابداعات المعمارية التى يمكن للمرء أن يلحظها مباشرة، وبملاحقة الأوبرات (كان يحب فاجنز) والمسرحيات والمحاضرات. كان هوجبين وهكسلى متعددى الثقافة، إنما من نوع متواضع، لكن هالدين كان يفوق الجميع. فعندما انتهى من دراسته فى إيتون كان يقرأ اللاتينية واليونانية والفرنسية والألمانية، وكانت لديه دراية طيبة بالتاريخ والسياسة المعاصرة، وكان يعرف من الكيمياء والبيولوجيا مايكفى للقيام بالبحوث. كان طويلأ قوى البنية يزن مائتى رطل من الشجاعة البدنية التى لاتقهر. وكثيرا ماكان يُجرى أبحاثا فسيولوجية مرهقة علي نفسه، ومن بينها أنه شرب حامض الأيدروكلوريك ليختبر أثره على النشاط الجسدى، وأنه كان يقوم بتدريبات جسدية شاقفة ليقيس التغير فى ضغط ثانى أكسيد الكربون فى رنتيه. قال عنه وراثى فرنسى مرتاع إنه ليس بشرا، إنه احدى قوى الطبيعة!

تزوج هوجبين بعد الحرب العالمية الأولى بوقت قصير من الاقتصادية نصيرة الحركة النسائية إنيذ تشارلس، وجعل من تحرير النساء جزءا من عقيدته الأساسية. تعرف هالدين على هكسلى فى بلومسبيرى، وكان من بين أصدقائهما أوتولين موريل، ليتون ستراشى، د. ه. لورنس، برتراند راصل، إذا لم نذكر ألنوز، شقيق جوليان. أصرا على اعتبار الانسجام الجنسى أمرا أساسيا للزواج السعيد، وعلى أن للمرأة الحق فى الإشباع الجنسى، بالضبط مثل الرجل، وأنه ليس ثمة مايشين فى المتعة الجنسية منفصلة عن الإنجاب. ومن الطبيعى أن يُقرأ بالطلاق وتنظم النسل. قام هسكلى بحملة نشطة تشجع منع الحمل، ليستحق الإذانة من اللورد ريث لأنه لوث أثير محطة الإذاعة البريطانية بمناقشة هذا الموضوع على الهواء.

على أن هالدين وهكسلى وهوجبين قد سقطوا ما بين الأخلاقيات المتفلغلة في نشأتهم الفيكتورية وبين مبادئ عقيدتهم المتمردة المقتنعة. عانى هكسلى من انهيارات عصبية متكررة - أصابته نوبة من هذه بعد شهر العسل مباشرة - وكان يعزوها إلي "صراع داخلي لم يحل عن موضوع الجنس". أما الزوجان هوجبين فقد حاولا أن ينظما حياتهما الزوجية بحيث تتمكن الزوجة - وكانت ألمعية في الرياضيات - من مولاة لهفتها المحببة كاحصائية، لكنهما رزقا بأربعة أطفال، وجاء معهم بالطبع التمييز الطبيعي لنور الجنسين في الحياة. (كثيرا ماتباهاى هوجبين بخصوبة عائلته أمام الزواج العقيم للكثير من الیوجينيين، الذين أسماهم أصحاب الدخل الوفير البتر - بوربونى القرن العشرين الذين لايساوون شيئا ولم ينجبوا طفلا). في قطعة لم تنشر من سيرته الذاتية، أجهد هالدين نفسه كي يذكر أنه لم ينضم إلى جماعة المنحرفين جنسيا في إيتون، وأنه ظل قلقا من الناحية الجنسية لوقت طويل بعد ذلك. لكن رونالد كلارك - الذى كتب سيرة هالدين الذاتية - قد وجد فيه "خجلا من النساء لم يتمكن أبدا من قهره، ومركب نقص كان يحاول أن يخفيه بفسوق غير متحفظ". نخل عليه طالب ذات مرة فى مسكنه بالجامعة ليتلقى عنه أول دروسه، فطلب إليه هالدين أن يجلس بينما يقضى حاجته والمبولة في يده. كانت كفايته محدودة في التعامل مع الأجهزة العلمية - شأن الكثير ممن يميلون إلى التنظير من العلماء - ولقد يقول لطالباته "إننى أدعى أننى ضليع فى استخدام الجهاز الأبوى". علق يوما في مأدبة عشاء خاصة بكيمبريدج قائلا إنه "لم يشترك أبدا وبحق فى لواط بهيمي"، وصاح ذات مرة، داخل أوتوبيس بجلاسجو مزدحم بالذاهبين إلى الكنيسة، قائلا "هذا هو المكان الذى كنت أرتكب فيه الفحشاء وأنا صبي".

لم يكن ثمة تبجح جنسى لافكتورى لدى جيننجز. فى أيام شبابه قال لسيدة شابة كانت معه فى قيو بارد يتناولان الفراولة والسكر إنه من الخطر أن يقرأ المرء كتاب "الأحلام" لأوليف شراينر. تحمل بشجاعة هو وخطيبته - ماري باريدج، قابلها بينما كانت تدرس البيولوجيا في ميتشجان - تحمل فترة خطوبة امتدت بضع سنين حتى سمحت لهما الظروف العائلية والمادية بالزواج. وفى هارفارد - حيث حصل علي الدكتوراه - وجد أن ثمة ما يضايق فى طالبة للدراسات العليا كانت باستمرار تعزو كل نكسة تحدث لها إلى اضطهاد السلطات الجامعية للنساء. "إنها تسبب فى الحق ضررا بالغاً لقضية المرأة، لأن الناس سيقولون إنه إذا ماكانت هذه هى الطريقة التى ستعمل بها النساء فى العلم أو الجامعة، فلاحاجة بنا إليهن". اهتمت

مارى باريدج جيننجز بأمر أطفالها، وزوجها وعمله، تساعده في بحوثه وترسم الرسومات لبعض كتبه، فى عمل من أعماله الكبيرة ناقش جيننجز حرية العلاقات الجنسية واستنبط أن الزواج الأحادى (الزواج مرة واحدة في العمر) ربما كان أفضل الطرق لتوفير حاجات الانسان البيولوجية على المدى التطورى البعيد.

ولد لانسوت هوجبين لعائلة متطرفة التدين أبقتة في صباه مهملاً، فظل طول عمره غريباً، فى سننى دراسته بكمبريدج كانت المسيحية الإنجيلية تتحول إلى راديكالية اشتراكية متقدمة تعارض الامبريالية. عمل هوجبين أثناء الحرب العالمية الأولى فى وحدة الإسعاف، ثم تنازل عن حقه كطالب طب فى الإعفاء من التجنيد، ورفض بوحى من ضميره دعوة الالتحاق بالجيش فأودع سجن ويرموود سكريس، وفى لندن مابعد الحرب بذل الوقت والطاقة لجماعات الاشتراكية والعمل، وكان من بينها اتحاد العمال الذى أسسته صديقه وجارته سيلفيا بانكهيرست.

كان ج. ب. س. هالدين على عسكه، فقد تطوع فى فرقة الحرس الأسود الأسكتلندى بعد أيام من سارايفو، ومضى إلى الخنادق ليصيبه الانزعاج عندما اكتشف أنه يحب القتل. عرض حياته للخطر بدرجة تفوق متطلبات واجبه، وجرح مرتين، وأثنى عليه السير بوجلاس هيرد لأنه "أشجع وأقدر الضباط فى جيشى". اكتشف هالدين بمخالطة الجنود العاديين أن الطبقات الدنيا من المجتمع تستحق إعادة النظر، رغم كل شىء. تدمر عام ١٩٢٤ من أن النظرية الوراثة تُستخدم فى بريطانيا "لتدعيم الأفكار السياسية لليمين المتطرف". كما يستخدمها فى أمريكا ألد أعداء الحرية. ومثل الكثيرين من مثقفى جيله، عاد من الحرب وقد خاب أمله لسقوط الأهداف التحررية، ولاسيما الليبرالية المتأصلة لعائلة هالدين. تحول إلى اشتراكية هامشية فظل متعاطفاً مع الأمبريالية، مناصراً للمستعمرين، وخاملاً مطلعاً.

أما جوليان هكسلى، وكانت سياسته قد اتجهت إلى سياسة وسطية فاترة، فقد انحرف إلى اليسار بسبب الكساد الاقتصادى والتهديد الفاشى، فأكد موقفه أكثر وأكثر عندما اتجه إلى أسبانيا كمستشار للدفاع المدنى للقوات الجمهورية. ولما كان هالدين يشك فى قدرة حكومة المحافظين أو العمال فى الوقوف أمام خطر النازى، فقد تحول ليصبح ماركسيا ملتزماً، وكان أن تبع زوجته - الصحفية شارلوت بيرغس - فانضم إلى الحزب الشيوعى. لم

يسترح هوجبين للمسلمات الماركسية والقمع السوفييتي فالتزم براديكالية مستقلة فطرية. أثار نقدُهُ الصريح لروسيا السوفيتية الاستنكار بين الراديكاليين البريطان، ومنهم زملاؤه في مدرسة لندن للاقتصاد، لكنه كان في نظر الجميع - مثل هالدين وهسكلي - عضوا بارزا في اليسار العلمي بالدولة.

عرف جيننجز التجربة المرة للفقر المدقع الدائم معرفةً مباشرة، ووجد صورة اتجاهاته السياسية الاقتصادية في كتاب "لوعاد المسيح إلى شيكاغو" لمؤلفه الصحفي وليام ستيد. كان هذا الكتاب المؤثر قد استفز المحافظين بسؤاله عما يقول المسيح في موعظة الجبل عن المؤسسة المرتزقة للمتريدين على الكنيسة. استمع جيننجز في تسعينات القرن الماضي إلى موعظة - يقول إنها أفضل ماسمعه من مواعظ - "إن الذهاب إلى القوقاز أو إلى صناديق الانتخاب لهو واجب أهم من الذهاب إلى الكنيسة أو الاجتماعات الدينية، إن المسيح يهتم بما تفعله الأحزاب السياسية في هذا البلد أكثر من اهتمامه بما تفعله كنائسها". لم يكن جيننجز أبداً بالسياسي النشط، ولم يصبح أبداً السياسي الواعي مثلما كان هالدين أو هوجبين أو هسكلي. ورغم ذلك فقد غداً في تسعينات القرن الماضي متعاطفاً مع حزب الشعب الأمريكي، ثم اتجه بقوة في أواخر حياته إلى الناحية التقدمية من المجال السياسي.

دفعت "الليبرالية - إلى - الراديكالية" السياسية، الأربعة جميعاً إلى إدراك أن يوجينيا الخط الأم إنما تعبر عن التحيز العرقي والطبقي. حجب هوجبين اقتناعه بهذا خلال عمله في أواخر العشرينات كأستاذ بجامعة رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا. فلما عاد منها إلى لندن أقنع هسكلي بأن آراء الخط الأم التي يعتنقها بشأن العاطلين قد ساعدت النازية وحرضت عليها. ومن خلال عدسة الاشتراكية اكتشف هالدين - وأزعجه - أن يجد مُخْبِئاً في عقيدة الخط الأم افتراضات سياسية اجتماعية تتعارض مع آرائه. لم ين قد عرف الكثير عن وراثة الانسان، وكما قال هالدين "إن مايقدمه العلم من تبرير لما يجري في أمريكا باسم اليوجينيا، لا يضارعه إلا ماقدمه الانجيل من تبرير لاجراءات محاكم التفتيش". كان البيولوجيون البريطانيون الثلاثة جميعاً، أيضاً عصريين صرحاء بالنسبة للقضايا المتعلقة بحقوق المرأة، وكانوا علي خلاف مع القمع الجنسي الذي تقول به يوجينيا الخط الأم. وبينما كان جيننجز تقليدياً في مواقفه الخاصة نحو المرأة والجنس والزواج، سنجده متسامحاً مع المواقف غير التقليدية تجاه غير هذه من قضايا.

فى سنى ما بين الحربين كان هؤلاء الأربعة بين كبار البيولوجيين الشعبيين - كتبوا الكتب وديجوا المقالات لرجل الشارع عن محتوى وفحوى منجزات التقدم فى علوم الحياة. كانت كتاباتهم تطبع وتقرأ على جانبي الأطلنطى. كتب هوجبين بعنف لايلىن، وكتب هكسلى بوضوح هادىء، وكتب جينينجز بصراحة قوية، وكتب هالدين بسخرية ووقاحة. (قال هالدين إن أينشتين هو أعظم اليهود منذ عهد المسيح"، وجازف وقال إن جين النزف الدموى فى سلالة الملكة فيكتوريا قد ظهر على أغلب الظن عن طفرة "فى نواة خلية بخصية من خصيتى إدوارد دوق كنت عام ١٨١٨"). فى كتاب "الأساس البيولوجى لطبيعة الانسان" الصادر عام ١٩٣٠، والذى حصل على جائزة "مجلة الآباء" تلك السنة كأفضل كتاب فى الوراثة - كتب جينينجز أنه يبدو "أن قدرا كبيرا من الأفكار الخاطئة" يدور بين الناس "تحت رداء المبادئ البيولوجية الملائمة للأمور البشرية... وتبدو أكثر هذه الأفكار شيوعا فى محاولات تطبيق نتائج البحث العلمى الوراثة على الاصلاحات الاجتماعية". من بين هذه الأفكار الخاطئة - فى رأى جينينجز - فكرة أن اليوجينيا "تتطلب بنية أرسقراطية للمجتمع"، ثم - فى رأى هكسلى - فرضاً "بأن الطبقات الأثرى تتميز يوجينيا على جماهير الحرفيين والعمال". اشتكى هوجبين عام ١٩٣٠ فى كتابه "طبيعة المادة الحية" من أن اليوجيين قد أرفقوا اليوجينيا الاجتماعية بمعجم من المصطلحات لامكان له فى علم محايد أخلاقيا". وفى فترة ما بين الحربين أخذ الأربعة - هالدين، هكسلى، هوجبين، جينينجز - مع زملائهم البيولوجيين الشعبيين، أخذوا على عاتقهم أن يفضحوا هذه الأفكار الخاطئة، أن يظهروا المعجم، وأن ينظفوا هدف عملهم. ولقد اجتمعت المعرفة التى حقنوها فى أحاديثهم العامة مع معارضة رجل الشارع لتشكلا قضية ساخنة ذات فاعلية متزايدة، ضد سلطة يوجينيا الخط الأم.